قراءة سردية وبيئية في ومضة "شيخ" لصبري حسن

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

يتميز القاص والروائي المصري صبري حسن بحس إنساني عالٍ في كتاباته التي تشمل الرواية والقصيدة والقصة القصيرة والقصيرة جدا والومضة. وسأتناول في هذه المقالة القصيرة ومضة واحدة متميزة جدا وهي ومضة "شيخ" وسأحاول أن أقرأ هذه الومضة قراءة سردية تتناول مكوناتها النصية التي تشكّل منها عالما سرديا متكاملا وموحيا وقراءة وفقا لمنظور المدرسة النقدية "النقد البيئي" ecocriticism التي تركز على علاقة الإنسان بالطبيعة وكيف يصوّرها ويمثِّلها فنيا وأدبيا بوصفها لها ذاتيتها الخاصة وتمثّل عالما موازيا لعالمنا ومتقاطعا معه في آن. وها هو نص الومضة:

شيخٌ

تلا: وبالوالدين إحسانا، فأنَّ المنبر شوقاً للشجرة.

ومضة مكتوبة بلغة رمزية جميلة تجمع بين عالم الإنسان وعالم الحيوان. لو كان هناك منبر واحد مازال مصنوعا من الخشب لصدقت الومضة وعبرت عن عالم من المهمَّشين. ينظر القاص إلى بر الوالدين نظرة واسعة لا تقتصر على عالم البشر، بل تتجاوزه إلى كل الكائنات

والمخلوقات وكلٌّ له لغته كما أنبأنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، الأمر الذي يمكِّن الراوي هنا من أن يلتقط أنَّات الخشب المصنوع منه المنبر ويجعله يحن شوقا إلى أمه الشجرة. وربما كان عنوان الومضة يفارق معنى الشيخ الذي يخطب على المنبر إلى معنى الشيخوخة التي لا تمكِّن الشخصية من أن تلتقط توقد الإحساس أو ينصت لصوت الكون بزخمه وتنوعه. ومضة مفعمة بالإحساس الصادق الذي يجمع الكون كله في لقطة واحدة. تتكون الومضة من لقطتين: اللقطة الأولى يصوِّرها الراوي من منظور خارجي يمكن لأي أحد يقف في الزاوية التي يقف فيها أن ينقل لنا كلام الشيخ على المنبر؛ واللقطة الثانية ينقلها لنا من منظور داخلي يتجاوز حدود الحواس البشرية الخمسة حيث يضع الراوي نفسه موضع الخشب المصنوع منه المنبر الذي يقف عليه الشيخ في الجامع ليصوِّر لنا أن بر الوالدين والتراحم ليسا مقصورين على الإنسان، بل يتجاوزاه ليشملا سائر المخلوقات. وتجسد لنا الومضة نوعا من الإيمان بمعناه الواسع الذي ورد في القرآن الكريم الذي ذكر لنا أن كل مخلوق في هذا الكون يسبح لله بلغة لا نستطيع أن نسمعها أو نفهمها نحن البشر. وفي الوقت ذاته، يلتقط الراوي أنَّات ذلك المنبر وحنينه إلى أمه الشجرة وكأنه ينتقد رؤيتنا القاصرة على إبصار التواشج والتواصل بين كل مفردات الكون.

المدى الزمني في هذه الومضة القصصية قصير جدا عبارة عن لحظة التلاوة واستماع المنبر للآية غير الموجّهة له في الأساس. فهناك أشخاص افتراضيين يمثلون جمهور المصلين الذين يخطب فيهم الشيخ وهم الذين يتوجه إليهم الشيخ بخطبته. وبالنسبة للشخصيات، الشخصية المحرّكة للحدث هنا شخصيَّة الشيخ الذي لا يتفرّد في شيء شخصي، وإنما يوجد بصفته المتمثلة في دوره الديني، وإن كانت تلاوته لهذه الآية بعينها دون غيرها قد يدل على تميزه عن شيوخ آخرين قد يتلون آيات خاصة بالعذاب مثلا أو آيات قد يكون جمهورها الأصلي المستهدف في النص القرآني يتباين مع طبيعة جمهور المصلين هنا. والشخصية الثانية – المنبر – هي التي تقوم بالحدث الأساسي نظرا لتميُّزها وتحريكها على يد الراوي ومن ورائه المؤلف من موقع الجماد الذي نظنُّه ساكنا جامدا بلا روح إلى موقع الذات الفاعلة التي تتمثَّل الآية خير تمثيل وكأن الجماد أكثر إحساسا من جمهور المصليين الغائب على مستوى الفعل عن الومضة.

وهذا التفعيل للجماد يجعلنا ننظر للومضة أيضا من منظور النقد البيئي ecocritical perspective وكنت قد تناولتُ في العدد الماضي من مجلة سنا الومضة القصصية (العدد الثاني، يونيو 2014) ومضة "مصارعة" لعصام الشريف من هذا المنظور في مقالتي "قنوات الاتصال المغلقة"، إذ يتم سرد هذه الومضة على لسان الثور في مصارعة ثيران

وينقل لنا الآثار السلبية للمصارعة من منظوره الخاص. وهنا نجد ومضة صبري حسن مروية بضمير الغائب وليست بضمير المتكلم، ولكنّ الراوي يلتزم بمنظور المنبر في الشق الثاني من الومضة. وكون الراوي يركز على هذه الآية وينقلها في سرده على لسان الشيخ قد يوحي بأن البر بالوالدين والإحسان بهم – ولا تقول الآية "إليهم"، فالوالدان ليسا شخصا غريبا يتم الإحسان إليه أو تقديم خدمة تطوعية له – مفتقدان لدى جمهور المصلين. والراوي لا ينقل لنا رد فعل هذا الجمهور، وإنما رد فعل عنصر من عناصر الطبيعة قام البشر باستغلاله وقطعه من أمه الشجرة. ويحلينا ذلك إلى التعبير الذي نستعمله في مصر – "مقطوع من شجرة" – للإشارة إلى الشخص الذي فقد جميع أهله. ويبدو أن صبري حسن التقط هذه الومضة في لحظة حضور هذا التعبير وهذه الآية في مخيِّلته، فربط بينهما هذا الربط السردي الجميل. ويمكننا أن نجد في ذلك محاولة من الراوي أن يلفت انتباهنا إلى أن كل العوالم التي تحيط بنا من حيوانات وطيور وحشرات كائنات مثلنا تشعر وتتألم وتحس بالافتقاد إلى أهلها وبالانتماء إلى عالم قد لا نجده نحن البشر جديرا بالتأمل أو الاهتمام أو المراعاة نظرا لأننا ننظر إلى كل شيء وكل المخلوقات حولها على أنها أدوات نستعملها لمصلحتنا الشخصية ومنفعتنا فقط.